أدب الرّحلة في الاندلس والمغرب(ابن جبير/ابن بطوطة/أبو يعقوب الورجيلاني)

قال الإمام الشافعي:

سافر تجد عوضا عمّن تفارقه \*\*\* وانصب فإن لذيــذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف الماء يُفسده \*\*\* وإن سال طاب وإن لم يــجرِ لم يَطِب

والشمس لو وقفت في الفلك دائمة \*\*\* لملّها الناس من عـــجم ومن عــرب

تمهيد:

لقد سبق وأن أشرنا إلى أدب الرحلات من حيث الغاية والهدف يتم فيه تسليط الضوء على عادات الشعوب وثقافاتها وعقائدها وتاريخها ومعالمها الحضارية، والحضارة الإسلامية التي تمدّدت مساحتها بشكل سريع بفعل الفتوحات الإسلامية اتسمت بالثراء والتنوع حيث شملت أجناسا وأعراقا حضارتهم ضاربة في عمق التاريخ، ولذلك أصبحت البلاد الإسلامية ملتقى لعدّة حضارات وأماكن تاريخية، ولتعدّد مصادر الثقافة الإسلامية واتساع رقعتها الجغرافية من جهة ولوجود البقاع المقدّسة بشبه الجزيرة العربية فقد كانت الأسفار والرحلات لا تكاد تنقطع بين المشرق والأندلس والمغرب،ولهذا شهد أدب الرحلات تطورا لافتا بين هذه المناطق سعيا لأداء فريضة الحجّ أو بدافع تحصيل العلوم والفقه والفلسفة ولقاء أهل العلم والكرامات ورجال الفقه والتصوّف،وقد يكون أدب الرحلة مصاحبا للفتوحات وداعما لروح المغامرة والاستقصاء في مشارق الأرض ومغاربها.

1/ تطور أدب الرحلة في الأندلس والمغرب:

بالنظر إلى أهمية الرحلات ودروها في تكوين شخصية الأديب علميا وأدبيا، ودورها في التعريف بالبلدان والأمصار فقد شكّلت خلفية حاضنة لهذا الجنس الأدبي (أدب الرحلة) وأمدّته بعوامل البقاء والتطوّر فكل ما يقع تحت عين الرحّالة ويشدّ انتباهه يشكّل مادة صائغة لعمله الإبداعي،ولم تعد الرحلة بذلك مجرد حركة للجسد في تنقلاته بل غدت نقطة التقاء للروح بفضاءات المكان المطلقة،فهي مغامرة فكرية ونفسية وروحية،وفيها يتقاطع خيال الكاتب الرحّالة والأماكن الواقعية التي يحلّ بها ويرتحل عنها،وفي تقلّباتها تبرز أسئلة الهويّة والتاريخ والوجود والآخر والتواصل بين البشر وإشكالية الاختلاف ،وتكمن الصعوبة في مدى قدرة الأديب الرّحالة في تحويل تجربته الواقعية إلى نصّ أدبي مكتوب يراعي فيه خصوصية الأدب ومتطلباته من عواطف وخيال وسرد وتأمّلٍ ولغة فنية،لأنّ اتصال الأدب في بعده المتخيّل بالواقع والتضاريس والمكان والعادات والتقاليد والمسالك والممالك يجعلُ منه نصا" غير واضح الحدود،يمكن أن يُسكب فيه أيّ شيء:التوسيعات العلمية،وفهارس المتاحف،وحكايات الغرام،فهو يمكن أن يكون مليئا بالعلم،أو دراسة نفسية،أو بكلّ بساطة قصة حبّ أو كلّ ذلك معا"، وهذا الانفتاح على كلّ جانب هو ما شجّع الرحّالة على تدوين كلّ شيء بأسلوب أدبيّ مشوّق ضاربٍ في الذاتية وموغل في التفاصيل.

أدب الرحلة في الأندلس كان مزيجا من الرحلات إلى المشرق العربي أو داخل الرقعة الجغرافية الأوربية أو إلى شمال إفريقيا ،مثل الرحلات التي قام بها ابن بطوطة عبر الأندلس والمشرق والمغرب وهو من أشهر الرحّالة وكانت بغرض زيارة مكة والقدس والمرور بجامع الأزهر المشهور وهو في الغالب يرتبط بالدراسات الدينية.وفي أدبه وصف للحياة الثقافية ما بين المشرق والمغرب وبلاد الاندلس وتبيان العادات المحلية في علاقتها بالمشرق في أسلوب سردي مليء بالعواطف والتفاعل الشخصي مع الموروث الحضاري للأمة.

أمّا عن أدب الرحلة بالمغرب فقد كان يركّز فيه أصحابه عن تلك الروابط المتينة بين بلاد المغرب والمشرق العربي وقد يركز على أمور تجارية وموارد اقتصادية لغايات سياحية أو دينية.